مجلة المعجمية - تونس

ع 21-22

2006

النّمَاذجُ والــمَجالاتُ

إنغوس ماكنتوش Ingus McIntoch

ترجمه وقدّم له : المختار كريّم

1 – مقدّمة المتَرْجم :

1 – 1 – صاحب المقال : إنقوس ماكنتوش Ingus Mc Intosh لغوي اسكتلندي مختصّ في اللسانيات ، وهو من مواليد 1914 ، حامل لشاهادتين جامعيّتين ؛ الأولى في الفيلولوجيا المقارنة من جامعة أكسفورد ، والثانية في الأدب المقارن من جامعة هارفارد . درّس الإنقليزية في ثلاث جامعات هي حسب الترتيب التاريخي سوان سي وأكسفورد وإيدنبورغ . بدأ نشر أعماله من سنة 1952 ، وآخر ما صدر له كان سنة 1986 . ينتمي إلى المدرسة اللّسانيّة الإنقليزية ، وهي تعتمد المعنى في دراسة اللغة . وفي أعماله ما يتعلّق باللغة والأسلوبية والأدب . ونحن نعرف أنّه إلى حدود سنة 1991 كان ينشط في إعداد موسوعة في اللغة واللسانيات (آخر مراسلة تلقيناها منه كانت في جانفي 1991) .

1 – 2 – المقال المتَرْجَم : صدر في مجلة *Language* العدد 37 (1961) ص ص 325 - 337 وأعيد طبعه في كتاب بعنوان *Patterns of Language* بالاشتراك مع هالّيداي (Halliday) سنة 1966 .

بين المترجم وصاحب المقال مراسلاتٌ رخص له في إحداها بترجمة المقال المنشور هنا وأشار في بعضها الآخر إلى مواطن الصعوبة من وجهة نظر الترجمة . كما تفضّل كل من الأساتذة محمّد الهادي الطرابلسي أستاذ الأسلوبية ومحمّد المنصوري أستاذ الأدب الإنقليزي وإبراهيم بن مراد أستاذ العلوم المعجمية بجامعة منّوبة بمراجعة النص المعرّب ؛ فلهم جميعا الشكر الجزيل .

32 Blacket Place, Edinburgh EH9 1RL   Telephone 031-667 5791

December 17 1990

Dear Dr. Mokhtar,

I hereby authorise you to make a translation into Arabic of my paper 'Patterns and Ranges' which was published in vol. 37 of Language, 1961.

Yours sincerely

Angus McIntosh

صورة من ترخيص ماكنتوش للمترجم

1 – 2 – 1 – تيسير الاستفادة من المقال : يحتاج هذا المقال إلى فضل من النظر والتأنّي . وهو بحث في التّضام من حيث هو مجال مفتوح للاختيار ولكن هذا الاختيار وهو قضية بلاغية أو أسلوبية قد يصبح مبدءا من مبادئ النحو على أساسه قد تُشطب جمل

لانحرافها عن المجالات الضميمية المقبولة . وفهْمُ المقال يحتاج إلى نصيب من ألفة المصطلحات المستعملة خصوصا أنّها منقولة إلى غير تربتها الأولى ولذلك نقدّم أهمّها تيسيرا على القارئ .

1 – 2 – 1 – أ – **التضامّ Collocation** : مصطلح حديث إذ أنّ دراسة الضمائم والمعنى الضميمي تعود إلى الخمسينيّات حيث أولاها الباحث الإنقليزي فيرث (Firth) عناية .

ويعرّف نيومارك الضميمة على النحو التالي: "هي توارد كلمتين تواردا ينحصر به معنى إحداهما أو كلتيهما" (1) ؛ وقد أشار جوفري ليتش (G.Leech) (2) إلى أنّ النعتين Pretty و Handsome يتضامّان تضامّا مختلفا. فمن المعتاد أن يقول الإنقليزي: Pretty woman وHandsome man فإن استعمل مستعمل Handsome woman فإنّ المرأة الموصوفة رائقة للعين ولكن صفتي الأنوثة والدلّ فيها قد نزعتا إلى شيء من الوقار والنضج . والعربيّ يُميّز في الوصف بالبياض الرجل من المرأة من الشعر من الفرس فيقول: "رجل أزهر وامرأة رعبوبة وشعر أشمط وفرس أشهب" (3) . فإن استعمل ابن اللغة أو العارف بها ما يناسب المرأة مع الرجل فقال: رجل رُعبوب فقد لمّح إلى أمر آخر .

وتختلف الكلمات من هذه الزاوية في مدى طواعيتها للاستعمال مع كلمات أخرى . فمن الكلمات ما هو قابلٌ لأن يرافق عددا كبيرا من الكلمات الأخرى نحو الصفة جميل تطلق على المرأة والرجل والحيوانات والنباتات والأعمال الإنسانية حتّى أنّك لا تكاد تجد لها حدّا ، إلى كلمات مقصورة على عدد ضئيل من الكلمات الأخرى نحو "ناهد" فلا إخالك تجد لها استعمالا مع غير أنثى البشر في سنّ معيّن اللهمّ إلاّ إن كان الكلام إبداعا متعلّقا بالحيوانات يُنطقها المنشئ ، كأن يصف حمار بشّار بهذا الوصف الأتان التي قتلته عشقا . وكثيرا ما يحصل هذا اليوم في أفلام الصور المتحرّكة . وقد نجد كلمة لا تعلّق بغير كلمة واحدة مثل آجن وآسن وهما صفتان خاصّتان بدرجتين من درجات تعفّن الماء .

---

(1) Peter Newmark: *Approaches to Translation*, Oxford, Pergamon, 1981.

(2) Geoftrey Leech : Semantics . Pinguin Books , 1975 , p. 20 .

(3) أبو منصور الثعالبي : فقه اللغة ، الدار العربيّة للكتاب ، ليبيا ـ تونس، 1981، ص 65 .

والضميمة قد تكون موصوفا وصفة أو مؤكدا وتوكيدا أو مبدلا منه وبدلا أو مسندا ومسندا إليه أو معدودا وعددا أو فعلا وحرفا ... أي أنّ كلّ عنصرين لسانيين جمعهما تركيب ومعنى قابلان للدراسة من جهة تضامّهما وإن تصرّف منشئ تصرّفا مّا في ما اعتاده الناس فقد عدل عن المألوف وجلب نظر الفاحص وعُدّ ذلك إبداعا أو لغوا .

ومما يدخل في التضام الأمثال والعبارات الجاهزة والكليشيهات وهي عبارات ينتظم استعمالها بين الجماعة اللسانية نحو ما يقال في التعازي والتهاني .

وأوّل من قابل مصطلح collocation بمصطلح التضامّ تمام حسّان في كتابه اللغة العربية ، معناها ومبناها . أمّا من جهة المفهوم فهو عند العرب قديم وكلّ كتب اللغة والأمثال والأقوال المأثورة يمكن أن تدرج فيه . وقد ألّف فيه الثعالبي (ت 1038/429) كتابه الجليل فقه اللغة وسرّ العربيّة ولكن لم يصطلح العرب على المفهوم بمصطلح ثابت . وقد قسّم تمام حسّان التضامّ قسمين :

* التوارد أو التضام الأسلوبي أو تضام التوارد ،
* التلازم أو التضام الافتقاريّ أو تضامّ التلازم .

وخص القسم الأول بالدراسة وعرّفه بأن "يستلزم أحد العنصرين التحليليين النحويين عنصرا آخر فيسمّى التضامّ هنا التلازم" (4) ونحن نرى عدم مناسبة المصطلح المقترح أي التضام لهذا القسم لأنّ المقصود في كلامه الأمثلة النحوية المجرّدة ويحسن أن نتحدث في مثل هذه الحال عن **مركّبات** ويقابلها في الإنقليزية phrases وفي الفرنسية syntagmes .

أمّا القسم الثاني فقد عرّفه تمام حسان بكونه : "الطرق الممكنة في رصف جملة مّا فتختلف طريقة منها عن الأخرى تقديما وتأخيرا وفصلا ووصلا وهلمّ جرّا" (5) . وهذا التعريف غير مناسب أيضا لأنّه ينطبق ، في ما بدا لنا ، على مفهوم لساني آخر وهو

(4) اللغة العربيّة معناها ومبناها ، ط 2 ، مصر، 1979، ص 217 .
(5) نفسه، ص 213 .

الترتيب order وهو يناسب في دراسة المعاني معنى آخر-غير معنى التضام أطلق عليه ليتش مصطلح thematic meaning (6) وهو ما يمكن أن نعبّر عنه أيضا **بمصطلح النضد** الذي استعمله الجرجاني . والمعنى النضدي يكون حينئذ المعنى المتولد عن التصرف في بناء الجملة بالتقديم والتأخير والاعتراض ...

وعلى أيّة حال فإنّ مصطلح "تضام" بدا لنا مناسبا للمفهوم الذي يحمله مصطلح collocation بالمعنى الذي قدمناه آنفا وقد تصرّفنا في استعمال المادّة على وجهين : فإن قصدت الظاهرة عامة أو العملية الذهنية التي ترتبط بموجبها كلمة بأخرى **فهي تضام** وإن قصدت حالة أو حالات بعينها **فهي ضميمة وضمائم** . فتهشّم الزجاج مثال من أمثلة التضام والكلمة "زجاج" تضامت والكلمة "تهشم" تضاما مألوفا عند ناطقي العربية والكلمتان تؤلفان ضميمة عاديّة . ولكن إذا قال قائل : "تهشمت الموجة" فإمّا أن يعتبر جاهلا باللغة وإما أن يعتبر متصرفا في الضميمة العادية عادلا بعض العدول عن المألوف ، ذلك أنّ " تهشم" عند متكلمي العربية لا تتضام مع الأجسام السائلة أو المائعة أو الرخوة أو اللينة بل إنها لا تستعمل مع كل الأجسام الصلبة ، فالخشب يتكسر أو يتفتت . فـــ"تهشم" تتضمن حينئذ نوع المسند إليه القابل لأن يتكسر دفعة واحدة يفقد فيها شكله الأصلي ويتشظّى ، ولذلك يناسب الزجاج والصخر وجمجمة الرأس وما شابه ذلك ، غير أن "تكسر" تناسب كل جسم صلب . والملاحظ أن المتكلم الفقير المعجم يكثر من هذه الكلمات ذات المجال التضاميّ الواسع ، ويحصل ذلك بكثرة عند متعلمي اللغات المبتدئين وعند غير المختصين إذا تحدثوا في مسائل تحتاج إلى اختصاص ، وعند المجتمعات المهملة للغاتها نحو ما يحصل اليوم بين متكلمي العربية (7) . والسؤالان الواردان على الذهن إثر هذا هما :

أولا : هل من حد لتصرف المستعملين للغة المبدعين لضمائم جديدة ؟

وثانيا : هل من معايير يمكن على أساسها قبول الضميمة أو رفضها ؟

والمقال المترجم يطرح هذين السؤالين ويسعى إلى الإجابة عنهما .

---

(6) G. Leech : Semantics, p. 19

(7) ذكر تمام حسان ما يماثل هذا الأمر في كتابه المذكور، ص 330 .

1 – 2 – 1 – ب – **الأنموذج والمجال pattern and range :** يمثل هذان المصطلحان عنوان المقال ومدار البحث فيه ولذلك جمعتهما في هذا التقديم . أمّا مصطلح مجال range فأمره يسير — في ما يبدو لنا — إذ أنّ الضميمة مؤلفة من عنصرين اثنين وإذا نظرنا إلى أحد مكوّنيها معزولا وجدنا أنّه يمكن أن يناسب مجموعة من المكوّنات التي قد تتضام معه في سياقات نصية ومقامية متعددة وهذه المجموعة أو القائمة ليست منغلقة أي أنّه يمكن أن يضاف إليها عنصر جديد بفضل إبداع مبدع . خذ مثلا "سال" فهي تتضام مع قائمة من المكونات نذكر بعضها : سال [الماء ، الشراب، اللبن، العسل ، الخمر، العرق...] وهذه العناصر تشترك في صفة السيولة ولكن ذلك لم يمنع الشاعر من أن يقول [طويل] :

فلما قضينا من منى كل حاجـــة ومسح بالأركان مـــن هـــو ماسح
وشدت على دهم المهاري رحالنا و لم ينظر الغادي الـــذي هو رائـــح
أخذنـــا بأطراف الأحاديث بيننا **وسالت بـــأعناق المطيّ الأباطـــح** (8)

ولهذا السبب رأينا أنّ لفظ "مجال" يناسب المفهوم الذي يحمله مصطلح range .

أمّا مصطلح أنموذج pattern وقد اقترضه بعض اللسانيين الفرنسيين (9) ، بل صار متداولا بينهم اليوم ، فيشير إلى التراكيب النحوية المجردة فـــ (الفعل اللازم + الفاعل) أنموذج من نماذج الجملة العربية و(الفعل المتعدي + الفاعل + المفعول به) أنموذج آخر... وخروج الكلام عن هذه القاعدة خرق للقاعدة .

واختيار المصطلح لم يكن هينا علينا إذ وجدنا من استعمل إزاءه كلمة نمط (10) ، وقد تحاشيناه لتعدد معانيه المعجمية ولكثرة استعماله مقابلا لـــ mode وtype . ووجدنا أيضا لفظ قالب ، غير أننا وجدناه مكرسا لبنية أوسع من الجملة وهي البنية الأسلوبية في الخطبة أو القصيدة أو الرواية .

---

(8) نسبت هذه الأبيات إلى غير واحد وقد حللها عبد القاهر الجرجاني في كل من أسرار البلاغة والإعجاز .

(9) انظر J. Dubois : *Dictionnaire de linguistique*, Pattern

(10) تمام حسان : مناهج البحث في اللغة، المغرب ، 1979 ص 161 ، وقد استعمله عرضا في ترجمة عنوان كتاب .

كما نظرنا في كلمة منوال وهي مما كرّس مقابلا للمصطلح الفرنسي modèle . ثمّ إنّ المقال يُقلّب مادة المصطلح تقليبات عدّة يثقل فيها استعمال كلمة منوال . وأما مصطلح مثال فتركناه لاستحالة تقليبه كما نريد ولكثرة استعماله في معنى الشاهد على فكرة أو غيرها ويقابله بالإنقليزية example والفرنسية exemple . فاخترنا أنموذج ونماذج ونمذجة .

انتهينا حينئذ إلى انتقاء مصطلح أنموذج مقابلا لمصطلح pattern لانحصار معناه المعجمي أوّلا؛ فالكلمة من المعرّب عن الفارسية وهي بمعنى "مثال الشيء" ، ولاتفاق جملة من المعاجم الثنائيّة ([11]) على اختياره إزاء pattern ولسهولة تقليبه .

1 – 2 – 1 – أ – **انتخابية وضميميّة eligibility and collocability** : يتأرجح معنى كلمة eligibility بين الاصطلاح والمعنى العام وهي تتضمن معنى مركبا من معنى جذر ومشتقين أول فثان على النحو التالي :

eli gibi lity

فالجذر بمعنى انتخب elire ومنه اشتق النعت بمعنى الإمكان والقابلية والمناسبة لأن ينتخب eligible ومنهما اشتق الاسم بمعنى حالةُ مَنْ أو (ما) يحمل خصائص مناسبة لأن يُنتخب . وعبارة eligibility of a word تعني إذن مناسبة كلمة مّا لأن تُنتخب . فصغنا المصدر الصناعي ذا اللاحقة "يّة" وهي تعني اجتماع صفات الكلمة المشتق منها في الكلمة المشتقة فإذا قلنا انتخابية كلمة مّا قصدنا أنه اجتمعت فيها الصفات التي تؤهلها لأن تنتخب .

وإلى جانب مصطلح انتخابية نجد في المقال مصطلح collocability وهو لا يختلف عنه إلا في تخصيص مجال انتخابيته وهو الضميمة collocation ، والتدرج الاشتقاقي في كلتا الحالتين متماثل ولا فارق إلاّ في مادة الاشتقاق وهي هنا collocate وقد استعملنا مقابله مصطلح **ضميميّة** بناء على اختيارنا لمصطلح ضميمة مقابلا لـــ collocation . وضميميّةُ كلمة مّا تعني اتصافها بصفات تؤهلها لأن تنتخب في ضميمة مّا باعتبارها أنسب إلى تلك الصلة والعشرة الحاصلة بينها وبين الكلمة الأخرى في سياقات نصية محددة ومقامات معينة ومقتضيات حال مضبوطة . فجاء وقدم وأطل وهلّ أفعال تصلح

---

(11) انظر على سبيل المثال معجم المصطلحات العلمية والفنية ليوسف خياط، والمورد لمنير البعلبكي، ومعجم سعادة لجليل سعادة.

للاستعمال مع الإنسان . ولكنها وإن كانت تؤدي معنى مشتركا فإنّها تتباعد في الفويرقات المعنوية . فقدمَ وجاءَ كلمتان محايدتان، أمّا أطلّ وهلّ ففيهما من مشاعر المتكلّم وتورّطه في الخطاب ما يفصح عن علاقته بالقادم . وللمتكلم أن يتخيّر من المجموعة وأن ينتخب منها ما يناسب المقام . ومن لا يُحسن الاختيار قد يُحمّل كلامه من المعاني ما لا يرغب فيه أو ما لا يُعبّر عن حقيقة الأمر . فهذه الصحافة التونسية وأجهزة الإعلام الأخرى نعتت مجرما جنى على أرواح بريئة عديدة بالسفّاح فتحدّثت عن "سفاح نابل" في حين أنّ "سفّاح" وهي صيغة مبالغة من سفح لها في العربية معنيان إيجابيان فـــ"رجل سفّاح معطاء ورجل سفّاح أي قادر على الكلام والسفّاح لقب عبد الله بن محمّد أوّل خليفة من بني العبّاس" ([12]) ؛ فكأنّ كلمة سفّاك بالمقام أولى وفي اللسان في مادة سفك : "كأنّه بالدم أخصّ" . وقد لا يكون الاختيار لسبب مقامي من قبيل ما ذكر وإنّما لحاجة في طبيعة الكلمة الطالبة لغيرها . فالخمرة يناسبها الفعل مزّ والقهوة (بالمعنى الحديث) يناسبها ترشّف وكلاهما يقبل شرب بمعنى حيادي ، وأمّا احتسى فتناسبُ كليهما مع تلميح إلى المهلة لأنها منقولة من الطير إلى الإنسان .

ولعلّه يحسن بنا أن نشير في هذا المقام إلى أنّ عملية الانتخاب هذه ليست مقصورة على المبدعين والعلماء والباحثين بل يقوم بها المتكلّم العادي في كل حين . وهم إن اختلفوا في أمر ففي الغاية من هذا الانتخاب وفي طبيعته . فالعالم والمتكلم العادي في نظر جورج مونان ([13]) يتقاربان من حيث غاية الانتخاب وطبيعته ، فهو "اختيار لساني صرف تبعا للتجربة المراد تبليغها" ([14]) ؛ وأمّا المبدع فيختلف عنهما بإجراء سلسلة أخرى من الاختيارات ليس غرضها ـــ في الظاهر على الأقل ـــ تبليغ التجربة وإنّما غرضها من الرسالة التفنن في شكلها" ([15]) . والحقيقة أنّ جمع مونان للمتكلم العادي والعالم في خانة

---

(12) لسان العرب ، مادّة سفح .

(13) لا نذهب إلى ما ذهب إليه مونان لأنّ المتكلم العادي يطمح إلى التأثير في مخاطبة وكسب ثقته وموافقته على ما يرى فهو في كثير من الأحيان خطيب بارع .

(14) G. Mounin : *Clefs de linguistique*, Seghers, 1987 p. 180.

(15) نفسه.

واحدة غير مناسب لأنّ تداول اللغة في المجتمع يتميّز بحيوية خطابية عظيمة تختلف اختلافا جوهريا عن استعمال العلماء اللغة في بحوثهم .

هذه جملة من التوضيحات بدت لنا مناسبة لتيسير فهم المقال المترجم على القارئ ولزيادة الاستفادة مما ورد فيه من قضايا .

والمقال جدير بأن يُقرأ لأمور ثلاثة على الأقلّ : أوّلها إثارته لقضية بلاغية معنوية متصلة بالانتقاء المعجمي لحاجة علمية أو إبداعية وربط ذلك بالنحو ؛ وثانيها إشارته تلميحا أو تصريحا خلال صفحات المقال إلى إمكانية إجراء بحوث تطبيقية قد تكون هامّة مثل دراسة الضمائم في الأقاصيص الخيالية ، أو دراسة الضمائم الطريفة الناجحة من جهة الأسباب التي جعلتها تفوز بالبقاء وبتقدير الناس دون غيرها مما لا يقل عنها طرافة ؛ وثالثها إعطاؤه بعض المعايير لتقييم الضميمة والحكم بشأن صلاحيتها .

2 – المقال المترجم :

النماذجُ والمجالات

ينـــزع النحاة إلى الاعتنـــاء في المقام الأوّل بإرساء النماذج النحويّة المقبولة وبوصفها وبرفض أي مثال يسقط خارج حيّزها (1) ، لذا يبدو ضروريا إيـــجاد طريقة مّا في النظر إلى اللغة ، فيها فصل بين النحو والمعجم إذا ما أريد صياغة النمذجة وتحديدها من أقرب السبل . ذلك أنه يوجد فـــارق بين الكلام حول انتخابية قسم من الوحدات (2) خاص لموضع ما من التركيب النحوي للغة ما وبين انتخـــاب أمثلة من ذلك القسم لذلك المحل من الجملة المحددة أو لتلك المحلات منها . ولا يمكننا أن نضمن بســـاطة وصفنا النحوي ما لم نهيّأ من البداية لأن يكون الأمر بالنسبة إلينا واضحا ، وهو أنّ هناك عناصرَ معجمية ، عناصر انتخابية قوامها الضمائم (3) تنزع (بطرق مختلفة ينظر فيها في ما سيأتي) لأن تشطِبَ ، انطلاقا من الاستعمال الفعلي عددا كبيرا من الجمل (ومن الوحدات الأصغر منها) حتّى وإن بدت هذه الأمثلة خاضعة لكلّ قواعد الأنموذج النحوي . والنحاة بصفة عامّة ، لا يشغلون أنفسهم كثيرا برفض جمل من هذا القبـــيل لأنّها –مهماكانت عيوبها – تعتبرُ نحويا غير ذات بال . وهي بالأحرى مادّة عمل للمعجمي ولا شك أنّه توجد حالات هامشية في تقدير جملٍ يقف النحوي إزاءها حائرا سواء كان لديه داعٍ لأن يحشرَ نفسَها أو لم يكن . وهذا موضوع عسير إليه ألفت الانتباه ، لكنّ مواصلته لا تهمني .

---

(1) انظر في ما يتعلق بالمعايير النحوية على وجه الخصوص : N. Chomsky : Symatic Structure . S'Gravenhage, 1957, 15ff .

(2) انظر م. هاليداي : Ctégories of the theory of Grammar , § 3.1 , 5.1 . وسيصدر في مقال "Word" . وهذا البحث مدين كثيرًا لما أثارته ملاحظات هاليداي حول النحو والمعجم وخاصّة الفقرات 1.2 ، 3.6 ، 3.7 ، 4 ، 1.8 . وللنقاش الشخصي معه . وأنا أستغلّ هذه المناسبة للتعبير عن شكري لزميلين آخرين أيضًا هما ح.م. سنكلروج .ب ثورن لما أسدياه من تعاليق مفيده حول مسودّة مبكّرة لهذا العمل . وقد قدّم في فيفري سنة 1961 في ملتقى عُقد بمدرسة اللسانيّات التطبيقيّة بجامعة إيدنبورغ .

(3) انظر فيما يتعلق بمصطلح الضميمة ج.ر. فيرث
J.R. Firth : Papers in linguistics 1934-1951 H.(Oxford,1957) and, studies in linguistic analysis (Oxford,1957)

توجد في كلّ هذا بعض أوجه الشبه بين مشكل تقدير المفردات وتقدير وحدات تركيبية أكبر مثل الجمل . أتُعتبر " كفد " كلمة في اللغة العربية ؟ أو "فتس" أو "عفم" ؟ والجواب أنها ليست كذلك . ولكنّنا لا نفعل ذلك بسبب أنّه يمكننا أن نشير إلى بعض النقص في انتخابيتها من جهة الأنموذج أو الصيغة المتبناة . وكون هذه الألفاظ ليست كلمات راجع إلى أنه لم يعلق بها مرجع قط ([4]) ، ويمكننا القول إنّه يمكنها أن تعتبر كلمات متى ما ظهرت الحاجة إلى كلمات إضافية جديدة . فلها مظهر إملائيٌّ (Orthographic) وضمنيا صوتي يجعلها مؤهّلة لأن تنتخب لمثل هذا التبني ، بل يجوز القول إنّ الأمر لا يعدو مجرد صدفة إذا ما كان هذا المثال بعينه أو ذاك موجودا أو غير موجود ولكن من جهة أخرى "رلدبَ" أو "بعْلدَ" ليسا مؤهلين لأن تُنتخبا كلمتين عربيتين لأنه لا يمكنهما أن يكونا مثالين لهما شكل مقبول من جهة قوانين الفصاحة وتأليف الكلم .

ويحصل في مقـــام الجملة أمر من نفس القبيل . فهذه الجملة : "كانت سلّة الأوراق المهملة المتوهّجة تشخر شخيـــرا عـــاليا" ، تنتظر ، كما يقال ، حاجة لاستعمالها لا غير وليس من العسير أن نستنبط إحدى هذه الحاجات كأن نبنـــيَ قصّة خيالية ندرج جملتنا فيها ([5]) ، وهي تمـــاثل في هذا المعنى كفد أو فتس أو عفم ، ولكن هذا الملفوظ "عشرون لأنّ كان سوف عند غدا" لا يمكن أن يستعمل باعتباره جملة لأنّه لا يمثّل أي بناء لأيّ نمط من الجمل . وهو يناسب حينئذ "رلدب" أو "بعلدَ". وأخـــيـــرا علينا أن نلاحظ أنه توجد جمل حقيقية نحو "قد دخلت دجين" أو "يبدو الشيخ قد اختبل عقله" تـــمـــاما مثلما توجد كلمات حقيقية نحو "سلة" أو "رغم" .

ولكن يحسن بنا أن نتساءل عن الأمر الذي يقودنا لأن ننعت هذه الملفوظات بأنها حقيقية بصورة جليّة وعمّا إذا كانت المعايير المتوخاة للحكم على الكلمات هي نفس

---

(4) من علامات تلك الشكلية أنه لا يمكن أن تتضامّ تضاما أحسن أو أردأ من غيرها مع هذه الكلمة أو تلك وإن قيل لنا إنّ عفم حصرت نحويّا في كونها اسما فإنه مع ذلك سوف لا نجد مثلا نعوتا نشعر أنها أكثر أو أقل ملاءمة من غيرها لوصف هذا الاسم. انظر الهامش رقم 10 .

(5) يمكن أن تنجز دراسة معجمية هامّة عن التغييرات المعنوية التي تحدث للكلمات في القصص الخرافية ويمكن أن نسجل نقطة هامة وهي أن الكلمات المتأثرة محدودة جدا وأما الباقي فيبقى بصورة أكثر أو أقلّ " ثابتا " و " عاديا" .

المعايير المتوخّاة للحكم في شأن الجمل . فعندما أقول إن "سلة" و "رغم" كلمتان فلأنّي أعلم من تجربتي أنهما تلعبان دورا مّا ، أراه مميّزا للكلمات بقدر كاف يبرر نعتهما بذلك . فأنا أذكر أنني استعملتهما على هذا النحو أو سمعتهما أو رأيتهما مكتوبتين . ولكن عند تقديم الجمل يختلف الأمر إلى حدّ ما ذلك أنّني عادة ما أكون متهيئا لأن أتبيّن أصالةَ جملة ما (حتى وإن كنت لا أذكر لهذه الظروف مفعولها) لا يخامرني شك في التمسك بأن "قد دخلت دجين" جملة أصيلة .

يبدو حينئذ أنه يوجد اختلاف في مواقفي هنا . فأنا لا أستطيع البتة أن أقول : رغم أني لا أستطيع أن أذكر أنني استعملت أو سمعت أو رأيت لفظة "سلّة" قط فإنها بلا ريب كلمة (6) . ولكن إزاء ملفوظ أقدّر أنه جملة لا يقلقني السؤال عما إذا كنتُ صادفت قط من قبل هذه الجملة المزعومة (7) . وحسبي أن أكون على نحو مّا مقتنعا بأنّ هذه السلسلة من الكلمات ، وقد اعتبرت جملة ، يمكنها غاية الإمكان أن تفيد معنى في مقام ما (وربّما في عدد كبير من المقامات) يمكنني أن أصوّره أو أن أواجهه . ففي هذا المجـــال تتدخّل سلطة الأنموذج النحوي بطبيعة الحال . ولكن عند تقدير جملة من قبيل : "قد دخلت دجين" لي بعض الشروط الإضافية في ذهني وسأعود إليها لاحقا .

ينبغي أن نلاحظ أن المشاكل التي أتفحصها الآن لا تَبْرز إلاّ نادرا في التواصل اليومي بين مستعملي اللغة المكتملين ، ذلك أن هؤلاء الناس لا يستعملون في غالب الأحوال إلاّ سلاسل من الكلمات الحقيقية ولا سبيل البتة لما ليس كلمات نحو "كفد" أو "فتس" أو "عفم" أن توجد منثورة هنا وهناك خلالها ، وبطريقة مماثلة لا يستعمل هؤلاء الناس إلاّ جملاً ، وهم يجتنبون عادة ما ليس جملا .

ومع ذلك فإن هذه المشاكل تظهر عند تعاملنا مع الأطفال وغيرهم من متعلّمي اللغة ، وبالتالي فإنّ الكثير منا يواجهها بالفعل ، فهي ليست مجرد احتمالات نظرية . ويمكن

---

(6) يمكنني بطبيعة الحال أن أواجه من الآن شكلا غير مألوف إلى حدّ الآن نحو ما يحصل في عمل فني وأن أقرر أنه كلمة لمجرد كوني مقتنعا بأنه لو لم يكن كلمة لما أعيد استعماله في هذا العمل ولكن هذا موضوع آخر.

(7) أفترض هنا، على غرار ما سيحصل في مواقع أخرى، أن الجملة المعروضة للتمحيص تتكون من لفظم أو أكثر ليس وضعها باعتبارها كلمات محل خلاف.

القول إنّنا نكون مرتابين أو يقظين دفعة إن نحن واجهنا شكلا ، في مظهر كلمة ، لم يعترضنا من قبل قط بهذا المعنى ، في حين أنه تواجهنا باستمرار جمل نقبل عن طواعية كونها كذلك رغم أنها لم تعترضنا قبل ذلك قطّ . وعندما نجلس للحكم في شأن الجمل نحتاج دون ريب بادئ ذي بدء إلى أن نكون راضين عن الأنموذج النحوي . فهذا المعيار وحده كاف لأن يضع : "عشرون لأن كان سوف عند غدا" خارج الحلبة دفعة واحدة ، غير أنّه توجد سلاسل من الكلمات ترضي شروطنا حول الأنموذج ومع ذلك قد نتردد في تسميتها جملا ، فليس كلّها (والأمر يبدو لي كذلك) مقبولا . ومن بين تلك المقبولات ما هو مقبول بصورة أوضح من الأخريات .

ويمكن أن ندرس بعض الأمثلة ، وباستطاعتنا أن نحكم دون تردّد لصالح : "قد دخلت دجين" ، وأما "كانت سلّة الأوراق المهملة المتوهجة تشخر شخيرا عاليا" فقد تقبل بسرعة أقلّ ، على الأقلّ من قبل عامة الناس . فمن الراجح أن يعترض علينا معترض بأن الحالات التي قد تكون فيها مناسبة قليلة قلة تجعلها خليقة بالإهمال . ولهذا الضرب من النظر قيمة لسانية من نوع إحصائي ، ولكنها لا تكاد تخول لأي أحد أن ينكر على مثالنا صفة الجملة ، وفي كل الأحوال لا يمكن أن يُعترض عليه اعتراضنا على "عشرون لأن كان سوف عند غدا" . فهل لنا إذن أن نقول ببساطة إن لدينا ثلاث مراتب : المقبول في حينه ، والمحتاج إليه نادرا ولكنه مقبول ، والمستحيل ؟ وإنّ علينا قبل أن نشطب بلا تحفظ سلسلة من الكلمات باعتبارها ليست جملة يجب أن تحمل خصائص مثالنا الأخير أي أن تكون نحويا غير مقبولة . أعتقد أنه لا يمكننا أن نباشر الأمور على هذا النحو ، بل إنّ المعالجة التفصيلية لأمثلتنا الثلاثة أو أيّ أمثلة شبيهة بها قد لا تغطي الوضع تغطية مناسبة ، ذلك أنّه توجد حالات مشكلة أخرى هي بالأحرى من نوع آخر .

دعنا نتناول السلسلة : "سجّلت ريشة الأداء البريدي المنصهرة طقسا" فهل هذا الملفوظ ، على غرار جملة : سلّة الأوراق المهملة (8) ، ينتظر حاجّة للاستعمال فحسب أو

(8) الندارة الشديدة في ضميمة الجملة: سلة الأوراق المهملة ... يجب أن تذكي فينا الحذر من الوقوع في تصورات خاطئة ، ذلك انه قد تكون ضميمة نادرة جدا واضحة غاية الوضوح إذا كانت في مقام مناسب وقد لا تورطنا في أي من التخمينات المضنية حول احتمال تغييرات معنوية جذرية لهذه الكلمة المكوّنة لها أو لتلك .

هل يوجد اعتراض ما عليه لا يمكن أن نعترض به على المثال الثاني ؟ نحن لا نكاد نعترض عليه من جهة الأنموذج في المعنى الذي استعمل فيه هذا اللفظ ، لأنه يناسب في هذا الوجه جملا تقبل في حينها نحو : أحدث أستاذ الكيمياء العجوز ضجة . ومع ذلك فهو يختلف عن جملة سلّة الأوراق المهملة في وجه أساسي تماما . فنحن لا نستطيع بيسر ، ولنصغ ذلك في الألفاظ اليومية ، أن نعلّق معنى كافيا ، بـــ"ريشة الأداء البريدي المنصهرة" أو لـــ "سجّلت طقسا" يمكن تصوّره في أي ظرف (في قصة خيالية أو في أي مجال آخر) حيث يمكن أن يكون هذا الملفوظ ملائما (9) . وهذه طريقة للقول بأنّ للألفاظ حدّا ما في احتمال التعايش ، حدّا ما في إمكانية التضام بقطع النظر عن أي اعتبار للأنموذج في معناه النحوي . ومن نافل القول أن نشير إلى أن حدود مجال الجواز هذا غامضة غير ثابتة ، وأن مسألةَ ما نعنيه بالتعايش هي مسألة شائكة .

وباستطاعتنا أن ننظر إلى مسألة الضميمة من زاويتي نظر مختلفتين ، في أوليهما نحكم استنادا إلى ما إذا كانت الكلمة (ولنتناول أبسط نوع من الحالات حيث نركز الاهتمام على أحد طرفي الضميمة لكونه يجسم الغرابة) تحقق الهدف الذي نعتقد أنه موكول لها تحقيقه فـــي سياق محدّد ، وحينئذ ففي ظرف معيشي حيّ يمكنني أن أعترض على كلمة "مُرٌّ" وأطـــالب بتعويضها بكلمة "حامض" إذا ما قال لي قائل : "هذه الليمونة (وقد قطعناها نصفين وكلانا يمتص من نصفها) "مرّة" ولا أنكر بقولي هذا احتمال أن يكون الليمون مرّا ، ولكنّي أصرّ على أنّ "مرّ" دون ريب ليس الوصف الذي ينبغي استعماله لوصف هذه الليمونة . فأنا أتّهم رفيقي بقصور معجميٍّ . ولو قال : هذه الليمونة حلوة قد لا ينتابني شكّ ـــ وإن بدا الأمر غريبا ـــ في ملكته اللّسانية ، ولكن قد أشك في حاسته الذوقيّة أو حتى في مداركه العقلية . ولكن إنْ هو استعمل كلمة "مرّ" فمن المحتمل جدّا أن أفترض أنّ ردّ فعله تجاه طعم الليمون مطابق تقريبا لردّ فعلي . وحينئذ فإن اعترضت عليه فلأنّي أتّهمه باستعمال كلمة استعمالا خاطئا .

---

(9) المقام الوحيد الذي يمكن أن أتصوّره (عدا ورقة بحث في اللغة) حيث يمكن ألاّ تكون مناسبة مناسبة تامة هو أن تكون على لسان شخص في حالة مرضية ذهنية أعني حالة هذيان حيث يتصاحب انتظام النماذج النحوية وانحراف الضمائم .

نواجه في هذه الحالات من قبيل تضامّ **مرّ وليمونة** في المثال المذكور مشكلا عاما جدّا في اللسانيات التطبيقية يترع اللسانيون الوصفيون إلى إغفاله . فهم يعالجون مدوّنة مؤلفة من جمل ممكنة كثيرة يرتبونها في درجات مختلفة من التفصيل ، وفق خصائص التركيب ووفق نظام النصّ أو اللغة موضوع التحليل ، أو يستعملونها لتوضيح تلك الخصائص أو ذلك النظام ، ولكن ما اعتيد أن يعتبر من المسلمات هو أن القارئ (أو السامع) سيقبل دون استفسار كلّ هذه الجمل باعتبارها جملا ويُتْرك له تقريبا — إن هو رغب في ذلك — أن يستخرج لنفسه سياقا أو سياقات يمكن أن تدرج فيها تلك الجمل . وبغض النظر عن أي نقائص تصيب هذه المقاربة من زاوية تعلّم لغة ما فإنّه يوجد هنا جانب آخر وهو الاعتبار النظري. فإن اختلفت جملة عن أخرى معنويا وإن تماثلتا في التركيب ، فإنّ ذلك الاختلاف اختلاف نحويّ وإن صنّفهما وصف ببساطة باعتبارهما مثالين بديلين لنفس التركيب . وهو إن لم يذكر شيئا عن طبيعة الاختلاف من وجهة النظر المعجمية فلسبب لا يختلف فيه اثنان ، وهو أن الطرق الوصفية من هذا النوع يقوم بها غالبا نحاة لا معجميون ، ومجرد الوصف النحوي شأنه في ذلك شأن الوصف المعجمي ليس وصفا لسانيا كاملا .

هذا الأمر يحتاج إلى أن يحتفظ به في الذهن أكثر مما يفعل من هم مهتمّون بدرجة أولى بالتراكيب النحوية في ذاتها . ذلك انّه حتّى في النحو فإنّ اختيار تركيب دون تركيب أو مفردة دون مفردة له مغزى ، وهو موضوع خطير خطورة قد تجعل القضية أحيانا قضية حياة أو موت ؛ ومع ذلك فإنّ نصيبا وافرا مما ينتج عن هذا الأمر يؤخذ مُسلّما به بتمامه ويسكت عنه في النحو الوصفي . ومن وجْهتي النظر النحوية والضميمية يوجد بالنسبة إلى مستعمل لغة ما مشكل قائم باستمرار في مثل هذا الموضوع ، يتمثّل في أخذ قرار في مثل هذه المسائل ، في سيرورة لا تنقطع ، سيرورة اختيار أو انتخاب من جملة من البدائل . ومن البيّن بالنسبة إليه أنّه من غير الكافي أن يكون المرء قادرا على أن يخلق ، أو يولد عددا غير محدود من الجمل المستقيمة ، أي من الجمل التي يمكنها جميعا أن تكون مناسبة في سياقات يمكن تصوّرها .

وإذن فليس دون كرامة اللغوي أن يسعى إلى فهم المشاكل اللسانية ذات الصلة المتينة باللغة ، تلك المشاكل المرتبطة بالانتقاء النهائي لعناقيد من الألفاظ المعجمية في نماذج نحوية خاصّة في مثال معين لجملة على النحو المستعمل في ظرف معيش .

وأمّا الطريقة الثانية في النظر إلى موضوع الضميمة فهي تلك التي اتبعناها في الصفحات السابقة . ففي تقديرنا لضميمة مّا كثيرا ما نميل إلى أن نقيّمها دون إرجاعها إلى سياق محدد وأن نحكم في شأنها استنادا إلى إمكانيّة أن نتصوّر وضعا ممكنا أو أوضاعا ممكنة نستطيع أن ندرجها فيه أو فيها بصفة مناسبة . وهذه الطريقة تعطينا بطبيعة الحال مجالا أوسع وتسمح لنا بأن نتعـــامل مع إمكانيات "معنوية" متنوعة لكلمة أو لأكثر من بين الكلمات المستخدمة – وذلك ما يمكن بطريقة ما تطبيقه لو كنّا مرتبطين بمثال حيّ واحد . فإنّه يمكنني بيسر دون حصر من هذا القبيل أن أجد مقامات متعدّدة مناسبة لجملة : هذه اللـــيمونة حلوة ، كأن نتصور امرأتين تتناقشان حول أنواع مختلفة من أقمشة لتغليف الوسائد ، أو مقاما يعجب فيه شخص مّا برسم للطبيعة الجامدة قام به طفل . وسأواصل انطلاقا من الدعوى القائلة إن هذا النوع من التمحيص مشروع تماما ، وسأحاول أن أظهر أن له محاسنه الخاصة به ولكنه لا يماثل في شيء تقدير مثال من الضمائم في سياق حيّ .

نصل الآن إلى نقطة أكثر حرجا : فهل نستعمل في تقييم الضمائم نفس المعايير التي نستعملها في انتخابية الكلمات أو المعايير التي نستعملها في انتخابية الجمل ؟ ولما كانت الطريقة المقترحة تسمح لنا في كل هذه الحالات بمجال أوسع للحكم في شأن انتخابيتها في سياقات ممكنة ، فإنّ لنا حريّة استنباطها ، وهو ما لا يحصل في السياق المحدد . فحريّ بي أن أتبنّى هنا المقاربة الثانية أو المقاربة العامة مفضلا إياها عن الأولى أو الخاصة . وسأبسط بعض الشيء وعلى نحو مّا قصد الوضوح مسالة المعايير بأن أعتبر خلال هذا العمل أنّنا نشتغل ضمن حدود وحدات نحوية محددة تحديدا واضحا لا يعترينا بشأن تركيبها النحويّ شك . وبهذه الطريقة نقلل ما وَسِعَنَا تورطنا في تعقيدات نحوية لا علاقة لها بموضوعنا . وعلى هذا النحو لا يثار السؤال عمّا إذا كانت هذه الضميمة أو تلك لا يمكن انتخابها لأنها تخفق في الاستجابة لمتطلبات الأنموذج النحوي .

وإرضاء رغبتنا ينبغي أن يكون بلا ريب في ألاّ نشطب ضمائم معتبرينها مستحيلة لمجرد كوننا لم نرها من قبل . فلو فعلنا ذلك لما أمكننا أن نبارك أي جملة جديدة عدا تلك التي قدّت من ترتيب مركبات قديمة مألوفة ترتيبا مغايرا بعض المغايرة للسابق ؛ وحتى في مثل هذه الحال ينبغي لنا أن نقول إن تلك المركبات قد تضامّت تضامّا جديدا ولا يمكن حينئذ أن تتجاور بصفة مشروعة . ومع ذلك فإننا بلا شك لا نُبارك أي سلسلة من الكلمات أو المركبات وإن كانت مقبولة نحويا ؛ وهكذا فإنّ مسألة كيف نستطيع أن نبتّ في صالح ضميمة وأن نلفظ أخرى ما تزال غامضة . من ذلك أنّ المرء قد يحجم عن اعتبار : "ريشة الأداء البريدي المنصهرة" فاعلا مناسبا لأي جملة مع أنه قد لا يجد صعوبة في قبول المركّب : "أستاذ الكيمياء العجوز" باعتباره معقولا جدّا رغم أنه في تجربة الكثير منّا قد لا تكون لهذا المركب أيّة أسبقية على الآخر باعتباره قد استُعمل من قبلُ . وحتى بالنسبة إلى الذين لا يعدّون هذا التركيب جديدا أفلم يواجهوه ذات يوم لأوّل مرّة ؟ ألم يقبلوه إذ ذاك وبعد ذلك ؟

إنّنا ، في اعتقادي ، لا نعتمد في أخذنا موقفين مختلفين من هاتين السلسلتين على مقياس الألفة فحسب ولكن على معيار الأنموذج أيضا . غير أنّ النماذج العميقة المتّصلة بموضوعنا هنا هي من نمط مختلف اختلافا تاما عن النمذجة النحويّة التي تحدّثنا عنها حتّى الآن ؛ وهكذا فإنني سأميّز في ما يلي هذا النوع الجديد بأن أتحدّث عن المجال وألاّ أستعمل "الأنموذج" إلاّ فيما تعلّق بالنحو . يوجد مثلا مجال قد يكون من العويص أن يحايد أو يوصف تُمثّله قائمة الأسماء المحدودة جدّا نسبيّا ، التي يمكن أن يُقال دون شكّ إنّ الكلمة "منصهر" تصفها . وزمرة الإمكانيات البديلة المتوفرة التي تُكوّنها هذه القائمة هي تماما جزء من شكل اللغة ، شأنها في ذلك شأن النظام النحوي . ووصف هذه الزمرة وصفا كاملا يمضي بنا شوطا كبيرا تجاه تكوين معنى لكلمة "منصهر" ([10]) . وهكذا فإنّ هذا المعنـــى ذاته يرتكز إلـــى حدّ كبير (وإن كان بطبيعة الحال رهين علاقات ضميمية أخرى

(10) من المسالك الأخرى للتعبير عن ذلك هي أنه لو لم يكن هناك أي قيد على ضميمة "منصهر" (أو أي من الكلمات التي قد نعتني بانتقائها) لما كان لها معنى غير ذلك المعنى "النحوي" أعني ما تحمله من معنى بمقتضى القيود الموجودة مهما كانت نحو: المحلات التي يمكن أن تنتخب لتحتلها في التركيب النحوي (انظر الهامش رقم 4) .

كذلك) على تشابه مّا في المعنـــى بين كل الأسماء موضوع البحث ([11]) . وهذا ، بالمقابل هو مجرد طريقة أخرى للقول إن ثمّة أوجه تشـــابه بارزة بين العـــادات الضميمية الخاصة بكل واحد منها وبين عـــاداتـــها مجتمعة ([12]) . فإذا قـــام الـــمرء (متجـــاهـــلا كلمة "البـــريد" فـــي هذه اللحظة) بمحـــاولة لضمّ "منصهر" إلى اسم من أسرة ([13]) مختلـــفة عن هذه اختلافـــا تـــاما (أي اسم له زمرة عادات ضميميّة مختلفة عن هذه اختلافـــا كبيرا) مثل "ريشة" ، فإن التجربة الوحيدة التي يمكن أن نستند إليها لدراسة هذه الكلمة هي تـــجربة تتصل بمظهر الشكل اللسانـــي الذي تربطه بطريقة ما علاقة بظاهرة المجال .

من المرجّح ، وقد واجهتنا ضميمة "الريشة المنصهرة"، أن نحاول الاعتماد على تلك التجربة ؛ ونحن نفعل ذلك لأمرين اثنين : لأثرها المباشر في هاتين الكلمتين ولما تستطيع أن توفره في ما يتعلّق بكلمات وضمائم أخرى واجهناها سابقا . ويبدو أنها ، بطريقة أو بأخرى، متشابهة . وقد نتعامل معها، تبعا لتجربتنا الشخصية ولكيفيّة الاعتماد عليها ، حسب طرق ثلاث على الأقلّ :

1 – قد نشطب العبارة كاملة باعتبارها لغوا ؛

2 – قد نجتهد – لأننا واجهنا هذا الضرب من الإمكانيات من قبل في البحث عن معنى لإحدى الكلمتين أو لكلتيهما لم يُحرب إلى حدّ الآن آملين أن يضعَ هذا التعديل الوحيد الأمور في نصابها . فقد تصبح الغزالة المنصهرة واضحة لطفل عندما (ولكن لا تصبح إلاّ عندما) يصير واعيا بالمعنى المناسب لكلمة الغزالة ([14]) .

علينا حينئذ أن نبذل جهدا كي نجد أو نفترض بعض الشبه لكلمة "ريشة" في الاستعمال وبمجال ضميمي فرعي (وإن كنّا نجهله إلى حدّ الآن) ينتظمها دفعة في مجموعة الأسماء هذه التـــي يمكن أن تنعت بكلمة منصهر ، وعلينا بصفة خاصة أن نتفحص بدافع

---

(11) وربما بالأحرى ما يسميه لودويغ وتغنشتاين Ludwig Wittgensdtein شبكة التشابهات المعقدة المتراكبة المتقاطعة : أحيانا المتشابهات الجامعة وأحيانا أخرى المتشابهات التفصيلية ، انظر Philosophica Investigations 1.66 (Oxford,1953)

(12) لا موجب للقلق إن عرضيّا بدا لبعض الكلمات أكثر من مجال على النحو الذي يقوم به المعجم بأن يذكر قوائم من المعاني المشققة متوالية في مداخل فرعيّة بل هذا عين ما ينبغي أن نتوقع وقد نجده في حالات كثيرة مناسبا لتقييم مجالنا إلى مجالات فرعيّة حسب ما توحي به الظروف أو نوايانا.

(13) وتغنشتاين 1.67 .

(14) المقصود بطبيعة الحال الشمس (المترجم)

من الأمل ، حالات الاستعمال القليلة التي تعني فيها "**ريشة**" ضربا من رؤوس الأقلام يصنع من المعدن ([15]) . وقد نراوح ذلك (وقد تمسكنا بخصيصة لغوية شكلية مختلفة تماما) بالسعي بحثا عن بعض الروابط بين "ريشة" و"منصهرة" التي تؤدي إلى رضائنا على الضميمة . ومن المقاربـــات الأخرى المتصلة بهذا أن نقرر أن أي مستوى من التعديلات من هذا الضرب المتعلق بإحدى الكلمتيـــن لن يكون كافيا ، وأن نـــحاول تنـــاول "الريشة المنصهرة" فـــي ضوء مركبات من قبيل "مسك الجنّ" أو "أنف العجل" أو "أمّ قشعم " أو "أمّ طبق" ([16]) وذلك بناء على افتراض أن الصعوبة التـــي نواجههـــا قد تكون نابعة من أن المفردة المعجمية أو الكلمة – مثلما هو الشأن في حالات أخرى كثيرة – لا تكون متمادة (Coextensive) .

3 – قد نسعى وفقا لفهم نزعات توسع المجال، فهما حدسيّا ـــ وتلك النزعات خصيصة لغويّة ([17]) ـــ إلى أن نتمثل ، انطلاقا من هذه الكلمة أو من تلك ، توسعا ما معقولا لمعنى مألوف ، أي توسعا في المجال الضميمي يمكن أن نكون مستعدين لقبوله بسبب ظواهر مماثلة ألفناها ولها صلة بكلمة أخرى وخاصة الكلمات التي تقرنها عاداتها الضميمية ربطا حميما إلى حدّ ما بكلمة " منصهر " نفسها .

نعلم أنّ كلمات نحو "ملتهب" و"محترق" و"مضيء" وغيرها لها، لسبب ما ، مجال ضميمي أوسعُ من تلك التـــي قرنـــاها إلى حـــدّ الآن بمنصهر . وقد نسعى حينئذ إلى تأويل "منصهر" في مثل هذا التركيب بـــ "السائل المشع"، ولعلّ حجتنا في ذلك أنه إن استطاع هارّيك (Herrick) ([18]) أن يستعمل "تسيّل لباس جوليا" فإن نسخة من نفس الصورة إن سخناها تسخينا فمن الممكن جدّا أن تطبّق على "**ريشة**" . ومهما يكن الأمر

---

(15) كلمة: feather قد تعني سندة من حديد تستعمل لصدع الحجارة ، وقد نزعت الى التخريج الذي ذهبت إليه اضطرارا كي يبقى للكلام معنى

(16) الأمثلة المذكورة معادلات لأمثلة ماكنتوش وهي مركبات إضافيّة معناها لا يستخرج من علاقة الإضافة ولا بدّ من معرفة ما تواضع عليه متكلمو العربيّة فمسك الجنّ وأنف العجل نبتتان وأمّ قشعم الموت وأمّ طبق الأفعى

(17) توجد بطبيعة الحال نزعات لتوسع الأنموذج تفضي بنا إلى القول إنّ النحو لا يبقى - هو الآخر - ثابتا، لكن هذا الأمر لا يعنينا هنا. وهي تمثل شعبة من تاريخ الإنقليزية أسيء البحث فيها (انظر التعليق 18) .

(18) المقصود هو الشاعر الانقليزي Robert Herick (1591 - 1674)

الذي قد نقوم به في هذه الأسطر تجدنا ســـاعين إلى فهم ضميمتنا بافتراض توسّع في المجال قد نجد له نظائر قريبة معقولة .

أمّـــا فـــي التطبيق فينبغي بطبـــيعة الحال دائما، إن أردنا أن نحسم المسألة في هذه الأسطر حول **الريشة المنصهرة** وهي فـــي مثـــال حيّ ، أن تقـــودنـــا بيّنة ضمـــيميّة من ضرب أكثر تنوعا . فالسؤال عن هذه " الريشة المنصهرة " ما عساها تكون (إن كانت شيئا ما أصلا) لا يُقرّر على أساس الإمكانيات التي قد نفكر فيها بالطرق المختلفة المقترحة أعلاه فحسب ؛ ولكن على أساس مثل هذه البيّنة وهي نوع الفعل الذي تربطه بمركّبنا علاقة فاعلية وعناصر كثيرة شبيهة بهذا. ذلك أن تقويم ضميمة ما يورّط في نهاية الأمر ، بطريقة أو بأخرى ، كل المفردات المعجمية الواردة في ذلك السياق ولا يكاد يوجد حدّ للدرجة التي قد تؤثّر فيها هذه المفردات في تأويلنا للكلمة التي صادف أن كنّا مهتمّين بها اهتماما خاصا ، بل إنّ ظروفا مختلفة في السياق الخارجي يرجح أن تكون وثيقة الصّلة بالموضوع أيضا .

وليس لنا من حسن الحظّ حاجة لأن نبلغ استنتاجا ختاميّا حول صحة عبارة "**ريشة الأداء البريدي المنصهرة**" أو "**سجلت طقسا**" وقد قُوّمت كلّ عبارة على حدة ؛ ولكن سيكون قِلّةً أولئك الذين يقبلون هاتين العبارتين في علاقة مسند ومسند إليه ، أي إنّه يجب بعبارة أخرى أن يُحْكَمَ في شأن هذه الجملة بطريقة مغايرة تماما للحكم على جملة "**سلّة الأوراق المهملة**" . وإن نحن (كما يبدو مرجحا) رفضناها فلانحرافها المتعدد عن المجالات الضميمية الجائزة وليس لأنّها تخرق الأنموذج أو لأنّها لا تنتظر إلاّ حاجة لاستعمالها .

ومن الخطر دائما أن نقدر أن سلسلة قصيرة من هذا النوع لا يمكنها في أي حال من الأحوال أن تمثّل جملة مقبولة ، غير أن سلاسل أطول يمكن إنتاجها بيسر ، وهو ما يثبّط عزم أحذق المستنبطين لمقامات معقولة ؛ وأي تفسير لمقام لا يُقْبلُ فيه حتى هذا المثال إلاّ كَرْها سيتضمن تَضَمُّنا يبدو عير قابل للشكّ أن تُفْتَرضَ لبعض الألفاظ المعجمية معانٍ ليس لها أي بيّنة في السابق . وينبغي أن يتضمّن المقام المتخيّل "معانيَ" مهما كانت معقولةً

هي خياليّة أيضـــا ، وبعبارة أخرى فإنّ مجرد تصوير لسياق ما مثلا لن يفسر بذاتـــه أي شيء ، وسنطالب في نفس الوقت بقبول أن أن تكونَ لهذه الألفاظ في هذا السياق بالأحرى معانٍ غريبة . وينبغي أن نتحمل تبعة التغاضي عن الطبيعة الخيالية المحض لهذه المعاني المزعومة ، بعض ذلك لانجذابنا لغرابة المقام المصوّر ، وبعضه الآخر لأنّ المقصودَ من ذلك هو جعل المعنى ما أمكن معقولا .

ومن طبيعة هذه الحالات أنه حتى وإن بذل كل جهد لابتداع مقـــام يلحق استعمال الألفاظ المعجمية فيه أدنى ما يمكن من التعسّف فإنّـــه من المحال أن يبتدع المرء مقاما لا تعسف فيه البتّة . وفي مثل هذه الحالة يجب أن تقبل هذه السّمـــة المتعلّقة بغرابة استعمـــال الألفاظ المعجمية نفسها باعتبارها إحدى خصائص المقام المستنبط أو إحدى مكوّنـــاته . ويحسن بي أن ألمح إلى أننا لا نواجه مثل هذا الضرب من الصعوبة ونحن نعـــالج جمـــلة : "سلّة الأوراق المهملة" لأننا نشعر أنّه لا يوجد فيها شيء يتجاوز تـــجربتنا العادية حول نزعات توسّع المجال .

ولنعد الآن ، وهذه الأفكار في أذهاننا ، إلى التساؤل عمّا يجري في موضوع الضمائم عندما تستعمل اللغة استعمالا فعليّا . عندما نتكلّم أو نكتب علينا أن نحقّق موازنة دقيقة . فإن التصقنا بالضمائم المألوفة التصاقا تامّا فإننا ، ولنصغ الأمر بلطف ، نعرض أنفسنا لخطر الابتذال ولا نستطيع في الحقيقة أن نتجنّب هذا الخطر إلاّ بالابتعاد إلى هذه المدى أو ذاك عن المألوف من التراكيب أو الجمل أو أيّ مكوّن كان . وأيّ أمر جديد ينبغي أن نقوله يستلزم ذلك . ومن المهمّ أن نؤكّد كلمة "مدى" ذلك أنّ مختلف مستعملي اللغة (وفي الحقيقة مختلف الأساليب اللغوية التقليدية) يختلفون في الحدّ الذي عنده يسقطون في اللغو ودون مدى معيّن قد تكون ضمائمهم "عادية" جدّا ولكنّ ضميمةَ هذه الضمائم قد تكون أكثر جرأة وأكثر خروجا عن المعْتاد ([18]) .

---

(18) إنه لمن المفيد في مثل هذه السياقات بالذات أن يحتفظ المرء في الذهن بالفرق بين المقاربة العامة والمقاربة الخاصة . يمكن لامرئ أن يقول إن الليمون الحامض ضميمة مألوفة بصفة كافية إلا أن كامل المركب إن استعمل في سياق غير مألوف فإن أثره قد يكون هائلا كأن أستعمله متحدثا عن عمي وحينئذ، إذا ما دققنا الأمر يبدو أنه علينا أن نميز بين المألوفية من زاوية الأشكال المستعملة والمألوفية من زاوية المرجع. وفي التطبيق لا يعد هذا الأمر ذا شأن ذلك أنه (إلا إذا ظهر العم في السياق المقامي

ومهما كانت النقطة التي نزيغ فيها إذا نحن أفرطنا في الابتعاد عن ضرب من المجالات الجائزة فإننا نعرض أنفسنا لخطر الغموض . والموازنة التي ينبغي أن نحققها هي إذن بين الابتذال والغموض ، وأنا لست مهتما هنا بالطريقة المشابهة لهذه في بعض وجوهها حيث يمكن للمرء أن يكون حذرا أو جسورا فيما يتعلّق بالنماذج النحوية . غير أني أودّ أن ألاحظ هذا التشابه وأن أشير إلى أنّ الحذر أو الإهمال النحويين والحذر أو الإهمال الضمائميين قد لا يتصاحبان سويّة . فقد نبهني مثلا زميلي هاليداي إلى التباين في كثير من قصائد وليام بوتلر ييتس (W.B.VEATS) بين الطبيعة العادية لغالب نماذجه النحوية وغرابة كثير من ضمائمه ، وإذا حدث شيء من هذا القبيل فإنّ إمكانيّة معالجته معالجة تحليلية دقيقة إلى حدّ ما أمر ذو أهمية لا شك فيها لأي امرئ يقوم بمقاربة في تحليل الأسلوب .

وإذا صغنا إذن الموضوع صياغة بسيطة إلى حدّ كبير أمكننا بعد ، على هذا الأساس ، أن نقول إنه توجد إمكانية لأربعة أنماط أسلوبية جليّة التميّز : (1) ضمائم عادية ونحو عادي ، (2) ضمائم غير عادية ونحو عادي ، (3) ضمائم عادية ونحو غير عادي ، (4) ضمائم غير عادية ونحو غير عادي . ولا يعدّ هذا إلاّ مدخلا ، ذلك أنّ ما يعدّ ضميميّا غير عادي قد يتضمّن كلمات هي ذاتها غير عادية (قارن مثلا بين : "**سلّة الأوراق المهملة المتوجهة**" و "**تبلّد لا يُعرب**") . وعلينا أن نقيم فرقا بين ما هو عادي بمعنى ما هو بعدُ مألوف ، وما هو بمعنى لم يواجهْ من قبل ولكنّه عادي من جهة معايير المجال ، وسأعطي مثالا من هذا النوع من الضمائم لاحقا . ولا أقترح الآن الاشتغال على هذه الأنماط الأسلوبية الأساسيّة .

ومسألة الحدود التي تفرضها على **الاختيار** أحكام المجال الجائز هي مسألة على قدر ما من الفائدة ، وإذ إنني بصدد دراسة الضمائم فإني لست مهتما هنا بدرجة أولى باختيار الكلمات النادرة فعلا ولا باستعمالها كما أني لست مهتمّا بالأسباب المختلفة الكثيرة

فحسب ولم يظهر في النص) في هذا المستوى ونحن بصدد النظر في عم والليمون الحامض باعتبارهما ضميمة نكون قد خطونا خطوة تجاه اللامعتاد .

الداعية لمثل هذا الاختيار ، ومع ذلك فإنّ هذا مظهر أسلوبيّ هام ومن المفيد أن نحتفظ في أذهاننا بالآثار المختلفة المرتقبة أو الحاصلة من استعمال مثل هذه الكلمات ؛ وعلينا بطريقة مماثلة أن نلاحظ من مختلف أنواع النماذج النحوية النادرة فعلا أن الأثر الذي تحدثه هي أيضا قد يكون متنوعا ، ذلك أنّه في هذا الحال كما هو الشأن مع المفردات قد تكون خصيصة معيّنة من هذا النوع أحَدَ أضرب مختلفة متعددة يتغير الأثر أو النكهة تبعا لها . هذا الأمر ، بطبيعة الحال ، مبتذل وما كان ليستحق الذكر لو لم يكن وضع هذه المشاكل قيد الفحص الصارم في إطار تحليلي مناسب — إن حصل ذلك قط — نادرا رغم كونها مشاكلَ مألوفة .

عليّ إن زدت خطوة في مسألة الضمائم العادية وغير العادية أن أعتبر أنّ معاني كلمة ما (كيفما عرّفنا المعنى) هي بطريقة مباشرة مّا مرتبطة بتجربتنا مع تلك الكلمة في سياقات مختلفة ، وهي أيضا مرتبطة بجمعنا لتلك الكلمة بكلمات أخرى لها معها في تجربتنا مجال متشابه على نحو مّا ، وبجمعنا لتلك الكلمة أيضا بكلمات أخرى ذات صيغ متشابهة ، بين أصولها غالبا ، ولكن ليس بينها دائما قرابةٌ . ومن الممكن جدّا أن تقوم مثل هذه الكلمات المتشابهة الصيغ بأدوار نحويّة مختلفة . ولذلك فليس من الضروري أن يكون لها المجال نفسه . فالجمع إذن عبر جسر النحو بطريقة متشعّبة قد يقودنا إلى استخلاص استنتاجات حول كلمة من مجال آخر .

ولا يستوي اثنان مساواة تامة في التجربة وعادات التداعي أبدا رغم أننا نترع إلى أن يكون لنا من كل هذا نصيب وافر مشترك مع الآخرين وذلك لسبب واضح : هو أننا نتقاسم معهم لزوما جزءا كبيرا من تجربتنا اللغوية . ولكنّه حتى والحال هذه ، توجد اختلافات بارزة كما تُبيّن ذلك تجربة النظر المحدودة في معجم كبير يخبرنا عن بعض العادات المعجمية المركبة لكثير من الناس ، فهو يدرج أحيانا كلمات لم تكن لي عنها أيّ تجربة سابقة وأحيانا أخرى كلمات يظهر أنّ لها قدرة على أن تعني أشياء لم أكن أعلم أنّه بإمكانها أن تعنيها ، أعني أنّه بإمكانها أن تحلّ في علاقات ضميميّة ما كان لي بها علم لحد الساعة . وعلينا أيضا أن نلاحظ أن المعجم

لا يقبل أيّ لفظ يسقط دون عمومية ما في التجربة ، أي أنه لا يغطي تلك الكلمات أو الضمائم الخـــاصة (العائلية مثلا) التي تكون مشاعة ضمن دوائر ضيّقة ؛ فقط وهو بطبـــيـــعة الحال لا يزودنا بطريقة الشرح أو التعريف أو أيّ طريقة أخرى – بأيّ شيء من قبيل التشقيقـــات المعنويّة المتعدّدة اللطـــيفة الفصلِ التـــي يمكن أن تحملها كلمة ما في (قل مثلا) عشرة آلاف حالة مختلفة ، وغاية ما يستطيع فعله هو أن يجرد (وربما يربط) المعـــانـــي المختلفة في أقسام كبرى يمثّل كل قسم منها ما أســـمّيه استعمـــالا ، أعنـــي بذلـــك مجمـــوعة من الـــحـــالات صنّفت مع بعضها البعض لأنّ المعنـــى الذي تنطوي عليه يبدو أنه يتطلّب أو يبرّر تعريفا أو شرحا مختلفا عن ذلك التعريف أو الشرح الموجود في قسم ما آخر .

وعموما سأعتبر الضميمة العادية كلّ ضميمة إذا ما واجهناها أمكننا **بيسر** أن نرجعها لهذا القسم أو ذاك من الأقسام التي يجري فيها عملنا على نحوِ ما يجري في المعاجم الكبرى في صيغها الأكثر تنظيما وانفتاحا . وبعبارة "**بيسر**" أعني دون إحساس أننا بفعلنا ذاك نوسّع ، بأي طريقة لافتة للنظر أو ذات شأن ، ذلك القسم (باعتبارها طريقة مختلفة ، إذا جاز التعبير ، عن طريقة الملء) بقبوله لعضوية مثالنا . وأنا أفضّل استعمالَ "عادي" ، و"غير عادي" عن "مألوف" و"غير مألوف" لأنّ هذين الأخيرين قد يترعان إلى أن يعنيا ضمنيا أننا نحتاج إلى مقياس هو تجربة سابقة عن ذلك المثال بعينه وهذا الأمر ، كما لمّحت لا يمثّل حالتنا . إنّ التجربة السابقة من هذا النوع تثبت فعلا صحّة بعض الضمائم التي قد تظهر غريبة إن هي قُدِّرَتْ على أساس معيار ما هو بالأحرى غامض ، وهو معيار المجال المتوقّع العادي (من ذلك : كان مرتديا ذعرا أزرق) ([19]) وإثباتها هذا يماثل تماما إثباتها لصحّة أمثلة ذات نماذج نحوية بالأحرى غريبة (نحو – جاء حاصدا) ([20]) ([21]) غير أن هذا النوع الخاص من التجارب لا يُعَدُّ العنصر الحاسم في كثير من الحالات .

---

(19) "كان مرتديا ذعرا أزرق" هي محاولة لترجمة He was in a blue funk ترجمة حرفيّة وهي ترجمة غير مناسبة لو لم نكن نرمي إلى الإبقاء على المقصود من المثال وهوَ أنّ هذه العبارة الجاهزة ومثيلاتها لا يتسنّى فهمها دون سابق تجربة . ولو لم يكن قصدنا ذاك لقلنا مثلا : كان مرعوبا (المترجم) .

(20) "جاء حاصدا" تقابل He came a cropper في النص الأصلي وهي عبارة جاهزة قد يقابلها في العربيّة : انهار .

ذلك أن غياب التجربة السابقة – إن عدنا إلى نقطة أثرناها قبل هذا ـــ نحو : "**غابة الدفلى**" و "**ماتت**" باعتبارهما ممثلين لعلاقة مسند ومسند إليه – لا يمنعني من القول بكامل الثقة في مقام مناسب : ماتت غابة الدفلى . ومثلما لُمحت توجد قواعد معقدة خاصة بالمجال تشتغل هنا وهي مؤسسة من جانبنا على معرفة نوع الفعل الذي يمكنه أن يستخدم مسندا لما يمكن أن نصفه، إذا تكلّمنا عنه أصلا ، باعتباره ذلك النوع من المسند إليه، ويوجد لمثل هذه المعرفة ، بطبيعة الحال ، أساس من تجربة قامت على أمثلة وإن نحن لم نقيد فعلا كلّ الأمثلة السابقة التي واجهتنا ، الحاملة لهذا المشكل ، فإنّ علينا مع ذلك أن نعترف بأنّ هناك صلة وثيقة لما تقيّده الذاكرة بموضوعنا . غير أنه يوجد عنصر آخر غير العنصرِ الذي يتضمنه مجرّد امتلاك قائمة من الأمثلة وهذا الأمر ينبغي ألا نتهاون بقيمته كما لا نتهاون في ميدان النحو بأهمية معرفةٍ هي أكثر من مجرد قائمة خامّ من المعلومات حول الظواهر الجدولية .

وفيما يتعلّق بما نحن مهتمون به فإن لنوع المعرفة هذا صلة بالطرق التي فيها ننظم المعلومات المكتسبة من ملاحظة الأمثلة ، وله صلة بفهمنا اللغة فهما لا يحتاجُ إلاّ لأجزاء صغرى منه لتقوم بدور عندما ننشئ أيّة جملة منفردة مناسبة للمقام . ونحن نعتمد على هذا الأمر في حالين : في مثل هذه الصياغة وكذلك في تقدير ما ينشئه الآخرون وفي محاولة فهمه . ولنضرب مثالاً بسيطا جدّا عن ذلك فإنّ جزءا من هذه المعرفة يمنعني من أن أقول (إلاّ في سجلّ مّا غريب) "توفيت (22) غابة الدفلى" وينبغي أحيانا لزوما ، من أجل أهداف بيداغوجية ، أن نعزل مثل هذا الجزء وأن نصوغه منفصلا . وبعد ذلك يمكننا عندما تظهر الحاجة ، أن نعالج مثل هذه المشاكل على حدة باعتبارها مشاكل اختلاف بين مجالي مات وتوفي .

ومن الضروري أن نقول هذا لأنّه توجد بصفة مفرطة الكثرة نزعة لدى الناس المعتنين بلغة مّا إلى أن يتخلوا عن معالجة أدقّ الصعوبات من هذا الضرب ملمّحين ـــ وهم

---

(21) إنّ أمثلة من هذا القبيل قد تحيّرنا عندما نواجهها لأول مرة وهي إذن تختلف في هذا المعنى عن "**أستاذ الكيمياء العجوز**" .

(22) تقابلها في النص الأصلي عبارة passed away وهي تعريض بمعنى مات.

يفعلون ذلك — إلى أن بعض الصعوبات لا يمكن في حقيقة الأمر أن ينصاع للدراسة الصارمة وهو معزول نسبيًا . وهم كثيرا ما يتحدّثون وكأنّ امتلاك كامل الذوق اللغوي (23) امتلاكا شاملا بكل لطائفه يمكن أن يكون أكثر نفعا في فك الصعوبات التي تعترض المرء إزاء أمور مثل الاختيار بين : قيهن (gehen) وفهرن (fahren) في الألمانية (***) وسير (Ser) وايستر (estar) في الإسبانية (****) صحيح أن ثمّة مشاكل مجالية بعيدة المنال معقدة في أكثر مثل هذه المظاهر تعقيدا ولكن ليس صحيحا أن نتمسك بأنه لا يمكن فصلها فصلا مفيدا ومعالجتها بعد ذلك لصالح الأطفال أو الأجانب بطريقة معينة يقصد منها سدّ النقص ، ذلك أن متعلمي اللغة هؤلاء لم تتوفر لهم فرص طبيعية ليراكموا (كما يراكم ابن اللغة البالغ) كفاءة عمادها معلومات مرتبة متصلة اتصالا وثيقا بامتلاك ناصية المشكل المبسوط .

ويمكن أيضا أن ننظر إلى معرفة المجال هذه المعرفة النسقية باعتبارها أمرا أساسيا عندما ندرس بعض مظاهر استعمال اللغة الإنقليزية من قبل أبناء اللغة المجرّبين متكلّمين أو كتّابا، ذلك أنّ هذه المظاهر وثيقة الارتباط بعمليات توسّع المجال أو التوليد التي بها يمكن غاية الإمكان لضمائم غير عادية أن تضاف إلى تلك التي جرّبت بعد (24) ولعلّ عددا كبيرا من الضمائم الجديدة — مما ندرجه بيسر رغم جدّته في صنف العادي — له مجرّد قيمة دنيا .

وتلك الحالات أمثلة من نوع "مجال الملء" حيث لا يغير المثال الجديد عمليا طبيعة المجال الذي يسقط فيه رغم إننا لم نواجهه قط سابقا (وقد لا يخامرنا شعور بوجوده أصلا) ، ومثال ذلك يمكن أن يكون مجرّد إضافتي لفظ غابة الدفلى إلى تجربتي السابقة المتعلقة بأسماء النباتات التي تتضامّ مع **توفّي** في علاقة مسند -مسند إليه .

---

(23) يقابل الذوق اللغوي في النص الأصلي Sprachgefühl وهو لفظ ألماني (المترجم) .

(***) gehen و fahren فعلان في اللغة الألمانية بمعنى مشى وسار وسافر وما شاكل ذلك.

(****) Ser و estar في اللغة الاسبانية تعنيان على التوالي "الكينونة" و"الوجود في مكان" (المترجم).

(24) من المواضيع التي تعادل توسّع المجال خطورة هي السيرورة التي بها يضيق المجال عبر إهمال استعمالات مألوفة سابقة أو تلك الوضعية الأكثر تعقيدا ولكن الأكثر عمومية حيث يضيق المجال في نقطة ما ولكنه يوسّع في أخرى ففي كل هذا توجد نظائر في النماذج النحوية.

وليس من الصائب ، فـــي اعتقـــادي ، أن نضع فـــي قسم العادي مثل كل هذه الحالات باعتبارها غير لافتة للنظر عندما نواجهها لأوّل . مرّة ذلك أنّه مما يكاد يكون صحيحا صحّة لا شـــائبة فيها أنّ عددا هـــائلا من الضمائم الموسّعة للمجال هي من النوع الذي يمرّ أيضا غير لافت للنظر بالمعنى المذكور ولو لم يكن الأمر كذلك لكان من العسير أن نفسّر هذا التيار المجـــالي الهـــائل المؤثر تأثيرا بليغا في المعجم ، ذلك التيار الذي حدث ويحدث فـــي اللغة الإنقلـــيزية . ولو جعلنا الانزعاج أو عقد الحاجبين معيارا لتوسّع المجال لاعتُرض علينا ، حسب ما أعتقد ، بالقول إنّ هذه العلامـــات الدّالة على أن شيئا ما غريبا حدث هي ببساطة لا تحصل في تجاربنا الشخصية بكثرة كافية لتعلـــيل أكثر من جزء صغير من هذا التيار ، وهذا يعود إلى القول بأنّ سلطة المجال هي على نحو يسمح بقبول أمثلة جديدة في هامش الجائز ذاته دون أن نحسّ حتّى مجرد الإحساس بأنّ هـــذه الأمثلة مريبة بصورة من الصور ، ويحصل أحيانا أن يوجد اختلاف حول ما هو مريب . وليس عرضيّا أنّ ما لا يحسّ متكلّمون صغار السنّ بأنّ هامشيّ أو غريب البتة قد يشعر الكبار بصورة صريحة بأنّه على حدود المقبول أو حتّى خلفها ([25]) .

وفي حالات أخرى نتفطّن إلى حالات تبدو جريئة هي مجدّدة، حالات تبدو (وإن لم نصغ الأمر على هذا النحو) متضمنة توسّعا فعليا في المجال . وبعض هذه الحالات قد تؤثّر سريعا في نسبة كبيرة من متكلّمي اللغة ؛ من ذلك أنّنا قد أخذنا نتفطن إلى أنّ كثيرا من الناس يستعملون كلمة "**ساحقة**" في معنى غريب أو بطريقة غريبة لعلّها تظهر في قولك: "**كانت لنا أمس مساء ساعة ساحقة**" (*) وهذا يعني ضمنيّا أنّنا تفطّنا إلى أنّنا أخذنا نسمع كلمة "ساحقة" في جوارين (مقامي ولساني سواسية) ما زلنا إلى حدّ الآن نعتبرهما دون ريب غير مناسبين . ونحن لا نفعل ذلك لكونهما خارجين عن تجربتنا السابقة فحسب ، ولكن أيضا لكونهما يقعان خلف ما يعتبره حسنا المجالي حتى مما يجوز بصورة هامشية .

---

(25) بطبيعة الحال ينطبق هذا الأمر أيضا على الألفاظ المعجمية باعتبارها ألفاظا معجمية وعلى النماذج النحوية بل إنه في حالة المجال المعجمي وتضييق الأنموذج يمكن أن يكون الصغير هو الذي يسأل عن جوازية أمر يعتبره الكبير عاديا.

*ساحقة Smashing تستعمل في العامية بمعنى رائق جدّا (المترجم) .

وتوجد حالات أخرى من الضمائم غير العادية قد تكون أكثر عرضية بل قد تكون فريدة . تلك الحالات هي النوع الذي يترع لأن يترل في الأدب وفي الشعر خاصة مترلة رفيعة ، وهي جزء من الوسائل التي بها يكدّ الناثر أو الشاعر نفسه في مقطوعة من نصّ تكبر أو تضعر لأن يبلّغ أمرا ما هو بِمُبَلِّغِه بالوسائل العاديّة ؛ وهو بفعله ذاك يثير مشكلا لا يمكن أن نعتمد في فكه على تجربة لها صلة وثيقة مباشرة بتلك الأمثلة . وبطبيعة الحال قد يحصل في حالة معيّنة أن نشهد الميلاد بذاته ، ميلاد أمر سينتقل بعد ذلك إلى الاستعمال العام ويكوّن من ذلك الحين فصاعدا جزءا من قائمة الضمائم العادية المتضمنة الكلمات موضوع النظر. وذلك هو الشأن مع مختلف المركّبات المتبنّاة في اللغة عن شكسبير والتوراة، وقد ينجز المرء بحثا مفيدا إن هو سعى إلى تحديد ما في هذه الضمائم من سرّ جرّها لأن تُتَبَنَّى هذا التبنّي الواسع في حين أن غيرها مما لا يقل عنها في الغالب إثارة مرّ عمليا دون أن يلفت النظر وفي مثل هذا النوع الأخير من الحالات ستترع نكهة الضميمة والحال أنه لم يلطخها الاستعمال اللاحق ، إلى أن تحتفظ بإثارتها وتميّزها ولكن في كلْتا الحالتين نواجه نفس المشكل العام ، مشكل طبيعة الأثر الذي تحدثه الضمائم غير العادية ساعة ما تستعمل لأوّل مرة .

ويزيد هذا المشكلَ تعقيدا عنصرٌ لا يمكن أن يطرق هنا ، ولكني أذكره لأنه غالبا ما لا يعار له النظر : إن تضامّت — خلافا للاستعمال العادي — كلمتان (أ) و(ب) فإنه توجد نزعة عامة لأن نعتبر المركب الحاصل يمثل استعمالا نادرا لـــ : (أ) أو (ب) فحسب ، أي أنّ الغرابة ترجع بصورة من الصور إلى أحد اللفظين لا إلى كليهما . صحيح أنّه كثيرا ما توجد أسباب قويّة داعية إلى أن ننظر إلى المسألة بهذه الطريقة . ففي أحيان كثيرة جدّا يبدو كلّ شيء في جملة كاملة عاديّا تماما عدا كلمة واحدة ناشزة عن كل الأخريات ، وعندما يحصل ذلك فإنّ ردّ فعلنا يرتكز على مواقفنا حول مجال الكلمة الجائز أو المتوقّع ؛ ويمكننا بيسر أن نقنع بأنفسنا أنّه لا توجد إلاّ كلمة واحدة تتصرّف ضميميّا تصرفا غريبا . ولكن يجب ألاّ ننسى أنّ النظر إلى المسألة على هذا النحو هو مجرّد خداع للنفس ، ذلك أن الغرابة يجب أن تضمّ ضمّا حميما جدّا كلمة أخرى على الأقلّ ؛ وأننا جررنا إلى الخطإ

بسبب أن معنـــى تلك الكلمة (رغم أنّ الأمر ليس كذلك) لا يبدو متأثرا بغيره أيَّ تـــأثر يبلغ تلك الدرجة . قد يحصل ذلك فعلا ، وهو جزء من فتنة العمل كلّه، غير أن التركيز ، على وجه الحصر ، على الكلمة موضوع النظر ليس سبيلا إلى أن نستفرغ ما في الضميمة من أهميّة .

عليّ أن أختم بملاحظة أو ملاحظتين حول ضمائم بسيطة بنيويا بساطة كبيرة ، في شأنها يمكننا بيسر كبير أن نتساءل أين تكمن الغرابة فيها ؟ ولِمَ تبدو في حالات كثيرة مركزةً في كلمة واحدة ؟ فإن واجهتُ لأوّل مرة ضميمة "الخاتم البريدي الفولاذي" ، فمن المرجّح – في اعتقادي – أن أعدّلَ تصوراتي (إن جاز لي أن أصوغ ذلك في عبارة عادية) حول الأختام البريدية أكثر من تعديلها حول الفولاذ . وكذا يكون شأني مع "كتاب المطاط" أو "الكلب الشفاف" أو "الدب المتكلّم" ولكن ، إزاء عبارة : "نهاية أسبوع طاحنة" ، في ظروف مماثلة أشعر بأنّ ما ينبغي عليّ تعديله هو النعت وأمّا "نهاية أسبوع" فتبقى في ذهني كما كانت من قبل تعني نفس الشيء أساسا وربما يحصل نفس الأمر مع عبارتي : "النهر المتحمّد"، و"ضربة الغولف الحصيفة". ويمكن أن يُنجز عمل مفيد حول العناصر الفاعلة في تركيز اهتمامنا على كلمات بعينها بهذه الطريقة وفي مناسبات ما ، ولإحداث ردود فعل مختلفة عن هذه اختلافا تاما في مناسبات أخرى ، مثلما يحصل في تلك الحالات التي تبدو فيها الغرابة كامنة في المركب باعتباره كلاّ وفي العلاقة الضمنية الشاذة على نحو ما ، أكثر من أي شيء آخر يبدو قد حصل لمعنى إحدى الكلمتين . وستقوم ضميمتي الخاصة في جملة : "**سلّة الأوراق المهملة**" مقام المثال عن هذا النوع من الضمائم . وبحث هذا المشكل سيعير – دون ريب – الاهتمام المطلوب لعنصرين اثنين هما الدور الذي تقوم به الألفاظ المعنية في التركيب النحوي وقوّة كلّ لفظ في معنى الإخبار أي درجة الانحصار النسبية لمجاله الضميمي المقبول .

ما سعيت إلى معالجته هو مظهر أو مظهران من مشكل الاختيار أو أخذ القرار الذي يواجهنا باستمرار عند استعمالنا اللغة حتّى في إطار النماذج النحويّة المقنّنة . وسعيت بوجه خاص إلى أن أتناول عنصر المجال وإلى أن ألمّح إلى أنّ اللّفظ يمكن أن يستعمل

استعمالا مفيدا في علاقته بالمعجم في معنى يجيب به عمّا سمّيته في الجانب النحوي بالأنموذج . وللأنموذج علاقةٌ بأبنية الجمل التي ننشئها ، وللمجال علاقة بالضمائم الخاصة التي ننشئها في سلسلة من الحالات الخاصة التي منها تُصنع أمثلة من الجمل ، فإنّ اعتبارات المجال تلك هي التي ينبغي أن نأخذها بعين الاعتبار ضمن ما يمليه الأنموذج عندما نعالج النصّ المكوّن من جمل حقيقية . سعيت حينئذ إلى أنّ أجلي جملة من الأسئلة التي يترع إلى إهمالها أولئك الذين يقصرون اهتمامهم على مواد الأنموذج النّحويّ دونَ سِواهُ تقريبا .

إنغوس ماكنتوش

جامعة إيدنبورغ بالمملكة المتحدة

ترجمة : المختار كريّم

كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس